الهجاء السياسي في الأدب الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين أنموذجاً

Political Satire in Andalusian Literature during the Times of Muravids & Muwahids: A Case Study

أحمد عبد الحميد رسن / جامعة الرازي – كلية الآداب

أ. د. محمد نبي أحمدي/ جامعة الرازي – كلية الآداب

أ. د. يحيى معروف/ جامعة الرازي – كلية الآداب

أ. د. أميري جهانكير/ جامعة الرازي – كلية الآداب

أ. د. علي سليمي/ جامعة الرازي – كلية الآداب

الملخص

ازدهر الشعر في الأندلس ازدهاراً كبيراً, حيثُ امتزج الشعر العربي بالشعر الإسباني وامتزجت القوة بجمال الكلمات, وخشونة الصحراء بينابيع الماء, فتدفق سيلٌ من أعذب الاشعار وأرقها غمر الأندلس بل والمشرق أجمع, فكان له الصدى الواسع وألفت به العديد من المجلدات التي تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية اليوم لتبقى شاهداً على تلك الحقبة الزمنية التي حملت في طياتها افراح الانتصارات ومرارة الانتكاسة وسقوط الاندلس بيد الإسبان وانتهاء الحكم الإسلامي فيها لقد اجتاز العرب المسلمون البحر ليصلوا إلى الأندلس حاملين معهم لغتهم و موروثهم الأدبي وحنينهم إلى أوطانهم, فانتشرت اللغة العربية وآدابها في يلاد الأندلس وتذوق أهلها عذوبة ذلك الفن وجمال تلك اللغة, فازدهرت فنون الشعر كافة ومن هذه الفنون كان هناك نصيب لفن الهجاء, و هذا الفن ينشأ عادةً حينما يصطدم الشاعر بواقع مرير أو مثير للسخط والغضب, فيتصدر الشاعر لإبرازه للعامة من خلال اشعاره معرضاً بصاحبه بأشد الكلمات, محرضاً عليه ومنكلاً به, لذا ارتأينا هاهنا أن نبين هذا النوع من الفن الأدبي في الأندلس لما له من أهمية كبيرة لبيان أسباب الانتكاسة وسقوط الأندلس بأكملهاالكلمات الافتتاحية: الشعر, الهجاء السياسي, الأندلس

Abstract

The art of Poetry had flourished greatly in Andalusia where Arabic poetry was mingled with Spanish poetry; power was mixed with the beauty of words; the roughness of the desert was mixed with the springs of water. As a result, a torrent of the freshest and finest poems flooded not only Andalusia, but the entire East. It had widely spread with which many volumes were written of which Arab and Islamic library abounds today to remain a witness to that prosperous era that carried with it the joys of victories and bitterness of setback together with the complete fall of Andalusia into the hands of the Spanish marking the end of the Islamic rule there. The Arab Muslims crossed the sea to reach Andalusia, bringing with them their language, literary heritage, and homesickness; Arabic language and its literature, therefore, spread in Andalusia and its people tasted the sweetness of the art and the beauty of that language. Consequently, all forms of poetry flourished among which satire had a share. This art usually arises when the poet is collides by a bitter reality, arousing discontent or anger, So, the poet takes the lead in highlighting it to the public through his poetry targeting the intended person with the harshest words, inciting and oppressing him.Due to its significance, the topic of political satire in Andalusia has been chosen for thorough investigation to explicate the reasons of setback and the fall of Andalusia as a whole.

المقدمة:

اتفق منذُ القدم أن الهجاء فن أدبي نقيض المدح, ويقوم على التعريض والشتم والسباب, وهذا الفن إما أن يكون هجاءً فردياً أو هجاءً جماعياً كهجاء قبيلةً ما, أو هجاء مصر من الأمصار, وقد يكون هجاءً سياسياً, يتعرض فيه الشاعر إلى مسألةً ما أو موضوع معين, ويكون مختصاً في الحكام والوزراء والقادة فضلاً عن القضاة والعلماء التابعين للحاكم.أن أقدم من تعرض لهذا الفن هو أبن سيده الأندلسي فقال: هَجَوْتُ الرجُلَ هَجَواً: شتمته بالشعر (ابن سيده, د–ت: ١٧٥)وفي لسان العرب لابن منظور: هَجا يَهجوُهُ هَجواً وهَجاءً. شتمهُ بالشعر وهو خلاف المدحِ.(ابن منظور, ١٩٦٨م: ٣٥٣/١٥) وعرفهُ الزبيدي في تاج العروس هَجَاهُ هَجْواً وهِجَاءً: شتمه بالشعر وعدد فيه معايبهُ. (الزبيدي, د–ت:٤٠٢)أما عبد الله البستاني في كتابه البستان فجاء في هذا الباب: هَجَاهُ يَهْجُوهُ, هَجواً وهَجَاءً وتَهَجَاء: عابه وشتمه وتنقصه, فهو هاجٍ وذاك مَهْجُوٌ. (البستاني, ١٩٣٠م:٢٥٦٤/٢)وعرفه الفخر الرازي في مختار الصحاح باب (هـ. ج. أ) الهَجاءُ ضدُ المدحِ بفتح الهاء فهو مهَجوٌ.وعرفه القاضي الجرجاني بتعريفٍ أوسع وأشمل وأدق ليدل به على براعة الشاعر ورفعت ذوقه وقدرته الفنية فيقول((فأما الهَجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت, وما اعترض بين التصريح والتعريض, وما قربت معانيه وسهل حفظه, وأسرع علوقه بالقلب, ولصوقه بالنفس, فأما القذف الفاحش فسباب محض, وليس للشاعر فيه إل إقامة الوزن وتصحيح النظم)) (الجرجاني, ١٩٦٦م:٣٤) أما في النقد الأندلسي فيقول ابن رشيق القيرواني وهو من علماء القرن الخامس الهجري ((وأنا أرى التعريض أهجى من التصريح, لاتساع الظن في التعريض, وشدة تعلق النفس به, والبحث عن معرفته وطلب حقيقته, وأجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية. وإن أشد الهجاء ما أصاب الغرض و وقع على النكتة)) (القيرواني:ج١٧٢/٢–١٧٦) العمده في حين قسم ابن بسام الهجاء على قسمين فقال((والهجاء ينقسم إلى قسمين: فقسم يسمونه هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ول هجواً مستبشعاً, وهو طأطأ قديماً من الأوائل, وثل عرش القبائل, غنما هو توبيخ وتعبير وتقديم وتأخير, والقسم الثاني: هو السباب الذي أحدثه جرير أيضاً وطبقته, وكان يقول: إذا هجوتم فأضحكوا. وهذا النوع منه لم يهدم بيتاً ولا عُيرت بهِ قبيلة)) (المقري, ١٩٤٩م:٢٥٤/٣–٢٥٥)في حين قسمه أبو الطيب ابن الشريف الرندي

على أربعة أقسام: التعريض, والتصريح, والتحقير, والتفضيل, غير أنه لم يفصل القول فيهن وأن كانت نظرته تدل على دقة وفهم وبراعة وايجاز. (الداية,١٩٦٨م: ٤٤٦-٤٤٧) لقد حضي هذا الفن باهتمام كبير في الأدب العربي فأفردت له الابواب واختص به شعراء عن غيرهم منذ العصر الجاهلي, فكانت القبائل تخشى طائلته, وكان العرب تكرهُ أن يهجوها شَّاعرٌ في شَّعره فهو اشد من وقع السيف في الرقاب, وليس ببعيد عن ذلك الأدب الأندلسي فقد راج به هذا الفن ولقي اقبالاً عليه رغم ترفع البعض من افرادهِ في باب من ابواب الفنون الأدبية ترفعاً عن ذلك, فبرز به شعراء عن غيرهم طيلة مدة الحكم الإسلامي في الأندلس ليكون شاهداً على ما مرت تلك البلاد به من ويلات وجور الحكام والقضاة والسلاطين فضلاً عن القادة وبعض الزعامات والنساء, التي انعكست فيما بعد على الأندلس عامة وعجلت بسقوطها بيد الإسبان الصليبيين. لقد تطور فن الهجاء على مر العصور متأثراً بطبيعة المجتمعات وثقافتها ((والواقع أن فن الهجاء مر بمراحل تطور عديدة على مدى عصور الآدب وتغيرت مفاهيمه وأساليبه صوره من عصر لآخر لاختلاف دوافعه وأسبابه ولتباين أذواق الناس من حقبةٍ لآخرى)) (عيسى, : ١٣), وشمل غرضه الفرد والمجتمع والحكام والقادة والقضاة ورجال الدولة, متعرضاً لهم, مستخدماً التصوير الفني الدقيق لوصف مفاسدهم وعيوبهم تصويراً دقيقاً, ينقد من خلاله كل الاوضاع السيئة محاولاً ابدالها, مستخدماً الواقع المحسوس أو الملموس, مع أثارة روح المرح والتهكم للأفراد الذين تم هجوهم, مع قلت عدد الأبيات الشعرية ووضوح الهدف منها.

ابرز العوامل المؤثرة في شعر الهجاء:

تظافرت عوامل عدة على التأثير في هذا الفن الأدبي ويمكن لنا أن نقسمها على:

أولاً: العوامل السياسية:لقد عانت الأندلس طيلة مدة الحكم الإسلامي فيها من اضطرابات سياسية كبيرة لم تجعل منه بلداً مستقراً فكانت المعارك مستعرة فيه بين المسلمين والصليبيين وما يرافقها من مؤامرات تحاك من قبل كلتا الدولتين المسلمة والنصرانية من أجل أضعاف الآخر, هذا من جهة, ومن جهة آخرى فتن البربر التي عصفت بالأندلس فجعلت منها بلداً في مهب الريح, قد اتت على البلاد بالويلات والحروب فقتل بها الآلف من المسلمين اسهمت كل تلك الأمور في اضعاف المجتمع الاندلسي وجعلت منه مجتمعا منقسم بسبب ضعف الحكام والقادة وتسليمهم امور الرعية بيد من لا يقدرون على قيادة الدولة أو بسبب مجونهم وانغماسهم في ملذاتهم الشهوانية, فتمزقت الأندلس إلى دويلات صغيرة يقاتل بعضها بعضاً ويستعين بعضهم بالصليبيين على اخوانهم المسلمين لقتالهم وسبي نساءهم, ودفع بعضهم الجزية إلى ملوك الروم صاغرين أذلة. كل تلك الأمور اسهمت في توقد نار الهجاء في روح شعراء الأندلس, فلم يقفو مكتوف الأيدي ازاء تلك الأحداث إنما صدعت اصواتهم بانتقاد سياسات حكام الأندلس المتخاذلة والضعيفة, منتقدة تصرفاتهم, واصفة اياهم بالخزي.

ثانياً: العوامل القبلية انتقل العرب المسلمون إلى الأندلس حاملين معهم موروثهم القديم, ومن ذلك الموروث العصبية القبلية, فكان الصراع القبلي حاضراً وأن سكن في بعض الفترات, ولكنه سرعان ما يتقد أن تولى الحكم سلطان ضعيف أو عصفت الفتن بالبلاد شكل التكوين العنصري في الأندلس حجر الأساس للفتنة التي ضربت الأندلس, أذ كان يشعر العرب بالفخر على غيرهم لآنهم من فتح الأندلس وأدخل أهلها في الاسلام, وهؤلاء قد تفاخر بعضهم على بعض فهم ((ينقسمون من الناحية العصبية إلى فرعين أساسيين المضرية واليمنية, وقد لعبت هذه العصبية القبلية دوراً خطيراً في المشرق, وامتد دورها إلى الأندلس)) (عبد الله, ١٩٨٤م: ٣٧) وكان إلى جنب القبائل العربية قبائل البربر ((وقد لعبوا دوراً بارزاً في فتح الأندلس, ولعل أكثرية الجيوش الأولى الفاتحة للأندلس كانت منهم)) (المصدر نفسه: ٣٨), كذلك الإسبانيون الذين اعتنقوا الإسلام, ممن اسلم أو ولد مسلما, وكان هؤلاء يشكلون العنصر الأساسي من المجتمع الأندلسي بالإضافة إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى, بالتالي أدت تلك الأمور إلى نشؤ الصراعات بين تلك الفئات, وكان للصراع السياسي والفكري النصيب الأكبر, فالشاعر ليس ببعيد عن ذلك الصراع بل لابد له من الانحياز إلى أحد تلك الأطراف المتنازعة ومناصرته والتعصب له ضد الطرف الآخر, أو أن يقف موقف الناقد لكل تلك الصراعات نابذاً لها ومؤكداً على أنها سبب لتمزيق الآمة الإسلامية, بل يجب نبذ تلك الخلافات والتوافق في مجتمع واحد ضد عدو واحد ألا وهو الصليبيين.كان المجتمع الأندلسي مجتمعاً مزيجاً بين بيئة الفقهاء من جهة وبين مجالس اللهو والخمر من جهة آخرى وقد عاش الكثير من الحكام والقادة حياة لاهية صاخبة مبتعدين عن الدين والشريعة مسلمين آمر البلاد في يد الفاسدين حتى وصف بعضهم بأنه ((يركن إلى ملذاته ولا يعنيه شيء من أمور مملكته)) (روض القرطاس). كل تلك الأمور أدت إلى نشوب صراع شديد بين كلتا الطبقتين كان فيها للشعراء النصيب الأكبر متخذين من الهجاء اسلوباً لانتقاد تلك المظاهر .

ثالثاً: التكسب بالهجاء.

برزت طبقة من الشعراء احترفت الهجاء واتخذته وسيله للتكسب والارتزاق, وما ساعد على ذلك هو وجود سوقاً لبضاعتهم في المجتمع الأندلسي, فكان الحكام والسلاطين يخشون من الهجاء بل أن البعض منهم لجأ إلى الحيلة للتخلص من ألسن الشعراء كما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم إشبيلية حينما تعرض لهم الشاعر محمد بن يحيى القلقاط((إذ امعن في هجاءِ أهل إشبيلية بـ أفحش الكلمات بل أن الحاكم نفسه لم يسلم من لسانه, فدس إليه من يخبره بأن الحاكم قد أرسل شخص ليقطع رأسه في فراشه, فخاف من ذلك وانصرف عن هجاء أهل إشبيلية وحاكمها)) (ينظر, التلمساني, ١٩٦٨م:١/١٩٠), وذهب البعض الآخر للتملق لشعراء الهجاء فكانوا يخصونهم بالأموال والهدايا, أمثال علي بن حربون أحد عاش في عصر الموحَّدين وكان شاعراً هجاءً لاذعن, قال عنه المراكشي ((نال عند قضاة المغرب وعماله جاهاً عظيماً وثروة, كل ذلك خوفاً من لسانه, وحذراً من هجائه)) (المراكشي,١٩٤٩م:٣٧٣-٣٧٤). لم تراع هذه الطبقة من الشعراء حرمة ولا ذمه, ولم يبالوا بما تقذف ألسنتهم من بذاءة الكلام.

الهجاء السياسي:عُدَّ موضوع الهجاء من المواضيع القديمة في الشعر العربي، وقد أشار النقاد القدماء إلى ذلك الفن وإلى رسوخهُ وثباتهُ في الشعر فهو فن قديم في الأدب العربي، وقد تطور تطوراً كبيراً كباقي الفنون الأدبية، فقد تطورت معانيه وألفاظه. (ينظر، محمد حسين، ١٩٤٧: ١ –٩)وفي الأندلس تطور هذا الفن تطوراً كبيراً منذ عصر الفتنة وعهد الطوائف والممالك الأندلسية، غير أن الكثير من الأدباء قد أقصو هذا الفن من مؤلفاتهم أمثال أبن حزم أذ كان يرى أنهُ ينبغي أن يتجنب من الشعر الهجاء (عيسى. فوزي سعد، الهجاء في الأدب الأندلسي، ٢٠٠٧م: ٢٤) وكذلك ابن بسام حيثُ صرح بأنه صان كتابةُ الذخيرة منه «عن شين الهجاء » (بن بسام، ١٩٣٩م: ٥٤٤ – ٥٤٦) وعبد الواحد المراكشي حيث اقصا هذا الفن من مؤلفاته (انظر، المراكشي، ١٩٤٩م: ٣٧٣ – ٣٧٤) على أنَّ الهجاء في العهد الأندلسي بشكل عام لا يتجاوز الاشارات العابرة المتناثرة او الأحكام العامة، حتى لقد ظن كثير من الباحثين أنَّ الهجاء لم تكن له سوق رائجة في بلاد الأندلس بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فأنكر وجود الهجاء كغرض من أغراض الشعر الأندلسي معللا رأيه بأن البيئة الأندلسية المتحضرة تنكر الهجاء، ومما قوى هذا الزعم أنَّ بعض المصادر الأندلسية لم يتسع صدرها لشعر الهجاء فأسقطته وأغفلت ذكر شعرائه. (فوزي عيسى ،٢٠٠٧م :٥)إلاّ أنّ الهجاء قد وجد في الشعر الأندلسي سوقاً رائجاً, تركيزنا هنا على الهجاء السياسي في عهد دولة المرابطين والموحدين، ذلك الهجاء الذي أسند في كثير من مواضعه على هجاء السياسين وقادة المعارك، بل قد تحول إلى هجاء الأعداء في معارك وذمهم بأقبح الصور .ولذلك يمكن القول أنَّ الهجاء السياسي جاء من موارد سياسيه لأن المجتمع الأندلسي لم يكتب له حياة سياسية مستقرة، فهذه الفترة، أي فترة المرابطين والموحدين كانت مضطربة، قامت فيها من الناحية السياسية ثورات متعددة واستحكام الشقاق والنفاق والتنافس من ناحيه أخرى بين مختلف الولاة والقادة. (الركابي، ١٩٦٦م:١٤) وعرفهُ الدكتور فوزي عيسى فقال «الهجاء السياسي هو كل ما يتصل بشؤون الحكم وأمور السياسة وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزن أو الدين» (المصدر السابق، فوزي عيسى، ٢٠٠٧م: ٢٤) . ويقول أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي إنَّ ذلك كان نتيجة الوضع السياسي في الأندلس، حيثُ كان الخليفة أو الحاكم مُعطل، إلى جانبه وزيراً أو حاجباً مستبد مسيطر، وفي بعض الأوقات تسيطر أم الخليفة أو السلطات أو أحدى النساء المتنفذات على مقاليد الأمور، ومثل هذا الوضع من شأنه أن يثير الشعراء ويجعلهم ساخطين، ومن ذلك قول بعض الشعراء في سخرية وتجريح انتقاداً للوضع كله فيقول: (هيكل، ١٩٨٥م:٢٨٠)

أقتَربَ الُوعْدُ وَحَانَ الهَلاكُ ... وَكلُ مَا تحذرهُ قَد أَتَاكَ
خَليفةٍ يَلعبُ فِي مَكتبٍ ... وَأمهُ حُبلى وَقاضٍ ....

وبذلك فتح بابا آخر وهو وجود شعراء للهجاء في الأندلس احترفوا الهجاء وأخذوه وسيلة للكسب والارتزاق ، وقد وجدوا رواجا لبضاعتهم من خلال الخلاف السياسي والعسكري بين الأمراء والقادة، قال (المقرئ) (إنَّ أهل الأندلس كان لهم في الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وتير المهاد) (التلمساني، ١٩٦٨م: ١٤٠-١٩٠).وأنتقل الخوف من الهجاء إلى الحكام أنفسهم، فأخذوا يدارون الشعراء خوفا من حدة السنتهم، ويمكن أن نعد (الأعمى المخزومي) زعيم شعراء هذه الطبقة المكتسبة بالهجاء، وقد وصفه الحجازي في المسهب بأنه (بشار الأندلس انطباعاً ولعناً واذاةً، وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد) (الحجازي ج١ :٢٣٨) فالهجاء السياسي هو كل ما يتصل بشؤون الحكم وأمور السياسة، وفيه يصور الشاعر عن عصبته للوطن أو الاقليم أو القبيلة أو الحزب أو الدين والشاعر في هذا اللون من الهجاء (يعبر عن جماعة يحس بشخصيته ألا في حدود هذه المجموعة التي يرتبط مصيره بها كل الارتباط، فهو يفنى فيها وجوده ،ويتجرد من نزعاته واهوائه ليحس بإحساسهم) (محمد حسين ،١٩٤٧م:١١٤)وتوسع مفهوم الهجاء في الأندلس وكان أهم تلك

الاتجاهات هجاء الملوك والحكام، والهجاء القبلي وهجاء الشعوبية وهما البربر والروم واليهود، ومن أسبابها تقلب الأحول السياسية واضطرابها، واستبداد بعض الحكام بالسلطة واهمالهم شؤون الرعية وتقاعسهم عن الجهاد.فهذا الشاعر السميسر، يغضب داعيا إلى الثورة على أولئك الحكام المتخاذلين، الذين شقوا عصا الإسلام بمخالفة تعاليمه والتي مثلها الشاعر بشخصية الرسول العظيم (صل الله عليه واله وسلم) فأصابوا الإسلام في صميمه. (عباس، ١٩٩٧م: ١١٥)

نَادَوا المَلوَّك وقَيل لَهم ... مَاذا الذي أحدَثتَم

أَسَلمتَم الإِسَلامَ في ... أسرِ العَدى وَقَعَدتُم

وَجبَ القَيامُ عَليكُم ... أَذ بَالنَصارى قُمتَم

لا تَنكَروا شَق العَصا ... فَعصَا النَبِي شَققتُم

شبه مناداته بالملوك كتشبيه المناداة يوم المحشر ليقف الناس للحساب على افعالهم وما صدر منهم ويوضع الميزان, وهنا الشاعر ينادي بالملوك سائلٍ ما الذي أحدثتموه إذ سلمتم بلاد المسلمين إلى الأعداء أسيرةً قد أذلوا أهلها وسبوا نساءها, ثم ينتقل الشاعر إلى وجوب القيام عليهم وعده فرضاً من فروض الدين إذ أنهم ركنوا إلى الصليبيين واستنصروا بهم على أخوانهم ثم سلموا البلاد لهم سبيتً, وابطل حجتهم في قتال أخوانهم المسلمين إذ كانوا يقولون عليهم بأنهم شقو عصا المسلمين فوجب قتالهم. فأخبرهم بأنهم هم من شقى العصا وأي عصا, عصا الرسول والدين كله.وفي أبيات أخرى يتهم الحكام بالخيانة، ويشير إلى تضاؤل مكانتهم واهتزاز صورهم في أعين الناس, وكيف هانوا في اعين الناس فاصبحوا دون كل الناس وتحت كل أسفلي, وأنهم قد كانوا ريحاً يقتلع بها الظلم والطغيان, واليوم قد سكنت تلك الريح فما عاد لها أثرو. فأنبرا قائلاً: (التلمساني ، ١٩٦٨م، ج٤ :١٨٠)

خُنتُم وَهَنتَم فَكم أهَنتَم ... زَمان كُنتَم بَلا عِيونِ

فَأنتم تَحتَ كُلَ تَحتَ ... وَأنتَم دُون كُلَ دُونِ

سَكنتَم يَا رِيَاحَ عَادٍ ... وَكُلَ رِيحِ الِى سَكون

وشاعر آخر يصور خيانة الأمراء ولا سيما بعد سقوط طليطله بسبب مصافحة أولئك الأمراء للنصارى واتفاقهم فيما بينهم على التخاذل وإيثار العقود وتواطؤهم على خطه زائفة عجلت بسقوط هذه المدينة فيقول: (التلمساني، ١٩٦٨م، ج٦ :٢٣٨)

وَقيل َتَجمَعوا لفَراقَ شَملِ ... طُليطَله تمَلكهَا الكَفور

فَقل فِي خَطة فِيها صَغا ... يُشيبَ لكُربِها الطَفل الصَغير

لقَد صَم السَميعُ فَلم يَعول ... على نَبأ كَما عُمي البَصِير

أيَا رَحمتا لَلَشَعرِ أقوت ربُوعهُ ... عَلى أنَها للمُكرمَاتِ مَناسَك

وللشُعراءِ اليَومَ ثلثَ عَروشَهم ... فَلا الفَخرُ مُختَالٌ وَلا العَز تَامك

إذَا أبتَدرَ النَاس الحَظوظَ وأشَرفَت ... مَطالبَ قُومٍ وَهي سُود حَوالك

رَأيتهَم لَو كَان عِندَك مَدفَع ... كَما كَسدَت خَلف الرَنَال التَرائك

فيَا دَولةَ الضَيمِ أجمَلي أو تَجامَلي ... فَقد أصبَحت تَلك العُرى وَالعُرائَك

إنَّ القارئ ليلتمس لوعة وشدة ألم الشاعر، حيث يبدأُ قصيدته بنداء قومه لتوديع مدينته كما يودعُ الحبيب حبيبه، يدعوهم لتوديعها دون الرجوع إليها إذ تملكها الكفر، وهذا تجسيدٌ أخر لنوع الصراع الديني القائم بين الصليبيين والمسلمين، ثم رسم لنا صورة ذلك اليوم وتلك الفاجعة فهي تشبه قيام الساعة، فيشيب منها الصغير، ويصم عن سماع نباءً رزيتاً أعظم منها، كما عميت العيون ولن ترى فاجعة مثلها، ثم يصفُ حالت أهل طليطلة وما حل بهم من كرب ومصاب وكيف أن قاداتهم قد خانوهم حينما صافحوا أعدائهم طمعاً في بقاء ملكهم.وقد أشتهر بهجاء المرابطين شاعران، هما ابن سهل اليكي والأبيض، أما اليكي فقد حمل عليهم حملة شديده، فوصفهم بالدناءة والخسة ورماهم بأبشع الصفات كقوله:(عباس، ١٩٩٧م:١١٦)

في كُلِّ من ربط اللثام دناءةٌ ولو انه يعلو على كيوان
ما لفخر عندهم سوى أن ينقلوا من بطن زانية لظهر حصان
المنتمون لحمير لكنهم وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطلبنَ مرابطاً ذا عفَة واطلب شعاع النار في الغدران

وصف المرابطين بالدناءة, فهم ملوثين الأعراض ليس لهم فخر سوى أنهم أولاد زنا من ظهورِ رجالاً ليس لهم اخلاقِ, ابدلوا تيجانهم بالقرون فأمسوا بلا تيجانِ, لا يطلب الخير منهم فطالبهُ كطالب النار من الماءِ, بل أنه يرى طلب النار من الماءِ قد يفضي إلى أمرٍ أما طلب الخير منهم فقد يؤس منه.وفي قصيدة أخرى له يهاجم أحد الحكام المرابطين واصفا أياه بالعجز عن تسيير دفة الحكم وبالضعف عن مواجهة الثوار والمنشقين فيقول: (المصدر نفسه، ج٢ : ٢٦٨)

على حمى الملكِ من ساسةٍ وما انت للملكِ بالسائسِ
من السوسِ اصبحت تخش الثقافةَ وقد جاءكَ النحس من بادسِ

أما في عصر الموحدين فان أكثر الظواهر وضوحاً هو خضوع الهجاء السياسي للتوجيه الرسمي، فالخليفة عبد المؤمن بن علي يمتحن الشعراء بهجاء أحد الوزراء عندما أمر بسجنه. «التلمساني، ١٩٦٨م،ج٥: ١٨٦)ومن موارد الهجاء، أنه عندما ثار المأمون الموحدي على فكرة الإمامة التي قامت عليها الدولة الموحدية, واعتبرت دعوته بالمهدي دين تومرت المؤسس الروحي للدولة، الذي زعم أنه المهدي الذي يملأُ الارض قسطا وعدلاكما ملئت ظلما وجوراً، ومن اسئلة التعريف به وبأعوانه قول أحد الشعراء. (التلمساني، ١٩٤٩م ج٢ :٣٧)

وَجدَ النبوةَ حلةً مطويةً لا يستطيعُ الخلق نسجَ مثالها
فأسر حسوا في ارتقاءِ يبتغي بمحالةٍ نسجاً على منوالها

وعندما بُثت الفتن بين أمراء البيت الموحدي في أواخر خلافة الموحدين، أتجه كل منهم إلى من يشايعه من الشعراء لهجاء منافسيه ففي الفتنه نشبت بين المأمون وأخيه يحيى الناصر أنقسم الشعراء إلى فريقين، فأنضم فريق منهم إلى جانب المأمون وأنحاز آخر إلى جانب يحيى الناصر، ودارت معركة هجائية بين الطرفين، وعندما نظم أحد الشعراء التابعين للمأمون قصيدة يؤيد فيها بيعته ويعرض بأخيه أمر يحيى شعراءه أن يردوا عليها فرد عليها ابن الصفار بقصيدة يعرض فيها بالمأمون الذي صافح النصارى وأستعان بهم في حربه ضد أخيه، وفيها يقول: (المراكشي ،١٩٥٠م،ج٣: ٣٦٣)

يَحيَى خَلِيفةُ رَب العَالمِينَ ومَن يجهَلهُ يعلمَهُ حَظُ السَمرِ وَالقَضِبِ
نَالَ الخَلافَةَ عَن خِبرٍ وعَن خِبرِ مَحقوق وبأرث عَن أخ وَابِ
لمَ يَنتصرُ بَالنَصارَى وَالبُغاَةِ عَلى المُطهرِينَ مَن الأدَناسِ والَرِيبِ

لقد اضفى الشاعر على ممدوحه الوصف الديني فهو خليفة الله المختار على عباده، وحذر من يتجاهله بأن سمر القنا وبيض الصفاح سيعلمنه بخليفة الله في أرضه، ثم عاد ليؤكد أحقيته في الخلافة بقوله أنهُ نال تلك الخلافة عن خبر وعن خبرٍ بحق فقد ورثها عن أخ وعن أب، ثم يهجو مخالفيه ومن حاول تصدر الخلافة وهو أخيه بقوله لم ينتصر بالنصارى، وهنا عرض بأخ الخليفة الذي استعان بالنصارى ليثبت حكمهفوصف النصارى بالبغاة، ووصف ممدوحه بالمطهرين من كل الأدناس والريبِ، وبذلك قد نجح بتوظيف ابياته للغرض المرجو منها، واجاد في ذلك.ويمكن القول إنَّ شعراء الموحدين في هجائهم لتوجيه الحكام، ولم نسمع في ذلك العصر أصواتا غاضبة تهاجم أمراء الموحدين وتندد بسيادتهم على النحو الذي رأيناه في عصر المرابطين؛ وربما يرجع السبب في ذلك إلى اختلاف طبيعة حكم المرابطين من الموحدين. (المراكشي، ١٩٤٩م :٢٩٣)أمّا ابو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض فقد وقف هجاءه على الزبير بن عمر اللمتوني أمير قرطبة وغرناطة على عهد المرابطين. (المصدر السابق، المغرب الكبير: ١٢٧/٢)والسبب لانغماسه في اللهو والمجون: (المصدر السابق، عباس: ١٩٩٧م: ١١٧)

عَكفَ الزُبَيرُ عَلى الضَلالةِ سَائَسا وأمامَهُ المَشهُورِ كَلب النَار
مَازَالَ يَأخذُ سَجدةَ في سَجدةَ بيَن القَيانِ وَنَغمةِ الأوَتَارِ
فَاذا اعتَراهُ السَهو سَبحَ خَلفَهُ صُوتُ الكَرانِ وَصَرخَةُ المَزمَارِ

أجاد الشاعر في استعمال ألفاظ الذم والهجاء التي خلعها على ابن الزبير، فجعله عاكف على ضلالته، كما يعكف المؤمن على عبادته، فجاء التضاد والتشبيه في أتم صوره، ولم يكتفِ بهذا القدر من المقارنة بل جعل سجوده المستمر والطويل بين الجواري وأعواد الغناء، وليس لله، حتى أنه استعان بصفة من صفات المؤمنين العاكفين على صلواتهم وسجودهم، ألا وهي السهو، وكيف أنهم يتداركون سهوهم بسجود أو تسبيح، وهنا جعل تسبيح ابن الزبير تسبيح طرب وغناءوتتكرر هذه المعاني في قصيدة أخرى مشيرا إلى أنَّ انغماسه في الخمر والقصف وأضاعت الجيش ونهب ببيت المال. (الاصبهاني،١٩٧١م: ٣٥٩/٢)

يَا سَائلِي عَن زَبيَرٍ أينَ مَسكَنهُ هَيهَات تَطلبُ شَمساً مَالهَا وَضَحُ
لا تَطلبَنَ زُبيَراً فِي مَساكِنهِ وَأسَال عَرابَه عَنهُ حَينَ يَصطَبحُ
نَشوانَ يَكرعِ فِي فَرجٍ وَفِي قَدحٍ وَالمَلكَ تَحتَ لبُانِ العُودِ مَطرَوحُ
يَا ضَيعةَ الجَيشَ لَن يَبقَى لهَم سَبدً أودَى السَماعُ ببَيتَ المَالِ وَالقَدحُ
وَيق وَصَده عَن قَراعِ الدَارِ عِين بَها قَرعٌ القُوارِيرُ أفُواهُ الأبَارِيقُ

يصف الشاعر حالة القادة والأمراء وما حل بهم من انغماسٍ في ملذاتهم وابتعاد عن دينهم حتى أصبحت صلاتهم وترتيلهم، ضرب أعواد المزامير وغناء االغواني، فبيتُ المال أصبح بأيديهم وينفقُ على الملذات وليالي الخلفاء، فالملك بين المزمارِ والعودِ منشغل, نشوان بشرب الخمر وغناء الجواري, أما الجند فقد ضاع أمرهم.ولهُ ايضا في هجائه: (محداد، ١٩٣٩م:١١٢)

أمّا زُبَيرٌ فَقد أودَى بَأندلس مَا كانَ مَن حُرمَةٍ فيهَا وَصَديق

عرض في هذا البيت وينظم أبياتا في هجاء أمير غرناطة بعد مغادرته من قوله: (للسلفي،١٩٩٣م: مخطوط ٢٦٥)

صَاحبَ غرناطة سفيهٌ واعلمَ الناس بالأمورِ
صانعَ أذ فونش والنصارى فأنظر إلى راية الدبير
وشاد بنيانه خلافا لطاعة الله والامير
يبني على نفسهِ سفاها كأنهُ دودة الحرير
دعوة يبني فسوف يدري اذا أتت قدرة القدير

يُعرض الشاعر السميسر بصاحب غرناطة وما كان منه من مهادنة الفونسو، وانصرافه إلى لذاته وبناء قصوره، مخالفاً تعاليم الله في الابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها، والعمل لأعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله.ولم يقتصر الهجاء على القادة والرؤساء بل ودارت حربٌ بين مكونات المجتمع الأندلس أيضاً، فأبن حريون يصفُ البرابرة بالرعاع ويشيد بموقف الموحدين منهم حينما قضوا على حركة العصيان التي قاموا بها حيثُ قال: (المصدر نفسه:١١٢)

وماذا تؤمل هذي الرعاعُ وأنى لها عنكم مهربُ
ستبرأ منهم إليك منهم الشعاب ويسلمها البازل الأصهبُ
لقد ركبوا مركب الجاهلين وذلك من شر ما يركبُ
فمزقتم شملهم في البلاد كأنهم جمل أجربُ

وهجا الوزير أبو جعفر أحمد بن سعيد, السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن أحد ملوك الموحدين في غرناطة, قائلاً:(المصدر السابق, عبد الله, ١٩٨٤م: ٧٦)

فَقُلْ لِحَريصٍ أنْ يراني مُقَيَّداً بخِدمتهِ لا يُجعَلُ البازُ في القَفَصْ

ومَا كُنْتُ إلاّ طَوْعَ نَفسي فهلْ أُرى مُطيعاً لِمَنْ عَن شأوِ فَخْرِيَ قَد نَقصْ

إذ كان يرى نفسه أعلى شأننا من الملك وأرفع قدرا وأكثر فخرا لم يتوانى شعراء الأندلس عن التعريض وهجاء القادة والأمراء والقضاة وأصحاب السلطة، مبينين أن ما أصاب الأندلس من وهن وضعف هو نتيجة سياساتهم والانغماس في لذاتهم، كذلك برز الهجاء المأجور والذي عمل على أثارته بعض القادة والحكام للنيل من خصومهم السياسيين، ونستطيع أن نقول أن الهجاء السياسي قد أدى غرضاً واضحاً وجلي، هو التعريض بأولئك الحكام.

المصدر والمراجع

١. ابن بسام, أبو الحسن علي, الذخيره في محاسن أهل الجزيرة, تحقيق, الدكتور, إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت, لبنان, ١٩٩٧م.
٢. ابن منظور, لسان العرب, الجزء الرابع , تحقيق, عبد الله علي الكبير – محمد أحمد حسب الله –٢٠١٠م.
٣. الأصبهاني, عماد الدين الكاتب, خريدة القصر وجريدة العصر, الجزء الثاني, تحقيق, محمد بهجة الأثري, مطبعة, ١٩٧١م.
٤. التلمساني, الشيخ أحمد بن محمد المقري, نفح الطيب, حققه, الدكتور إحسان عباس, دار صادر, بيروت, ١٩٦٨م.
٥. التلمساني, شهاب الدين أحمد بن محمد المقري, أزهار الرياض في أخبار عياض, ضبطه وحققه وعلق عليه,
٦. الجمحي, محمد بن سلام, طبقات فحول الشعراء, قرأه وشرحه, محمود محمد شاكر, السفر الأول, دار المدني بجدة, د–ت.
٧. الحجاري, أبو عبد الله محمد بن إبراهيم, المُغرب في حُلى المغرب, حققه وعلق عليه, الدكتور شوقي ضيف, مصر, ١٩٦٤م.
٨. حسين, الدكتور محمد, الهجاء والهجاءون في الجاهلية، مكتبة الآداب, الجماميزت, رمل الإسكندرية, ١٩٤٧م.
٩. الداية, محمد رضوان, تأريخ النقد الأدبي في الأندلس, دار الأنوار, بيروت, ١٩٦٨م, الطبعة الثانية.
١٠. الركابي، الدكتور جودت, في الأدب الأندلسي, دار المعارف, مصر, الطبعة الثانية, ١٩٦٦م.
١١. السلفي, الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد المتوفي سنة ٥٧٦ هـ, مُعجم السفر, تحقيق, البارودي, عبد الله عُمر, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت, لبنان, ١٩٩٣م.
١٢. الشنتري, أبي الحسن علي بن بسام, الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٢٩م.
١٣. عباس, إحسان, تاريخ الادب الاندلسي ،عصر الطوائف والمرابطين, دار الشروق, عمان, الاردن, ١٩٩٧م.
١٤. عبد الله, د. نافع , الهجاء في الشعر العربي الاندلسي, الطبعة الأولى, مطبعة كلية الآداب– جامعة بيروت, ١٩٨٤م.
١٥. عيسى. فوزي سعد, الهجاء في الأدب الأندلسي, وفاء لدنيا الطباعة والنشر, دار الطبعة الأولى, ٢٠٠٧م.
١٦. المراكشي, عبد الواحد, المعجب في تلخيص أخبار المغرب, صححه وعلق عليه, محمد سعيد العريان, الطبعة الأولى, ١٩٤٩م.
١٧. المراكشي, عبد الواحد, المعجب في تلخيص أخبار المغرب, مطبعة الاستقامة, القاهرة, الطبعة الأولى, ١٩٤٩م.
١٨. المُراكشي, لابن عذاري – قسم الموحدين, البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب /٢, مطبعة المناهل,١٩٥٠م.
١٩. المُرسي, أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي, زاد المسافر وغرة محيا الآدب السافر, أعتنى بنشره وتهذيبه والتعليق عليه, محداد, ١٩٣٩م.
٢٠. المقري, أحمد , نفح الطيب, تحقيق, محمد محي الدين عبد الحميد, المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة, الطبعة الأولى, الجزء الثالث, ١٩٤٩م.
٢١. المقري, أحمد , نفح الطيب, تحقيق, محمد محي الدين عبد الحميد, المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة, الطبعة الأولى, الجزء الرابع, ١٩٤٩م.
٢٢. المقري, أحمد , نفح الطيب, تحقيق, محمد محي الدين عبد الحميد, المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة, الطبعة الأولى, الجزء الخامس, ١٩٤٩م.
٢٣. المقري, أحمد , نفح الطيب, تحقيق, محمد محي الدين عبد الحميد, المكتبة التجارية الكبرى, القاهرة, الطبعة الأولى, الجزء السادس, ١٩٤٩م.
٢٤. هيكل, الدكتور. أحمد, الأدب الأندلسي من الفتح إلى سُقوط الخلافة, دار المعارف القاهرة, ١٩٨٥م.
٢٥. يحيى, دكتور جلال, المغرب الكبير, الدار القومية للطباعة والنشر, ١٩٦٦م.